﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال: 36 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

المناسبة بين المكاء والتّصدية، والإنفاق في الصّدّ

ما أخبر الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن عبادةِ الكفّارِ البدنيّةِ، وهي المُكاءُ والتّصديةُ، ذكر عَقِبَه عبادتَهم الماليّةَ التي لا جدوَى لها في الآخرة بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: (سبل) أصْلٌ يَدُلُّ على امْتِدادِ شَيْءٍ. والمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامْتِدادِه، وهو الطّريقُ الذي فيه سُهولةٌ، وما وضَحَ منه، يُذَكَّر ويُؤَنَّثُ. ويُستعملُ السَّبيلُ لكلّ ما يُتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، وسَبيلُ الله: طَريقُ الهُدَى الَّذي دَعا إليه[2].

2) ﴿حَسۡرَةٗ﴾: (حسر) أصْلٌ، وهو من كشفِ الشّيءِ، والحَسْرةُ: أشدُّ التّلهّفِ على الشّيءِ الفائتِ، وذلك انكشافُ أمرِه في جزعِه وقلّةِ صبرِه، وهي الغمُّ على ما فاتَه والنّدمُ عليه، كأنّه انحسرَ عنه الجهلُ الذي حملَه على ما ارتكبَه، قال تعالى: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 156][3].

(1) الشّربينيّ، السراج المنير: 1/569، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/513.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حسر).

3) ﴿يُغْلَبُونَۗ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ وقهرٍ وشدّةٍ، والغَلَبَةُ القهرُ، وتَغَلَّبَ على بَلَدِ كَذا: اسْتَوْلَى عليه قَهْرًا[1]، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ أي: لا يَظفرون بما يُؤمّلون[2].

4) ﴿يُحْشَرُونَ﴾: (حشر) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ مع السَّوقِ والبعثِ والانبعاثِ، أحْشُرُهُم حَشْرًا: جمعتُهم، ومنه يومُ الحشْر. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[3]، وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني يُساقون إلى النّارِ[4].

5) ﴿لِيَمِيزَ﴾: (ميز) أصْلٌ يَدُلُّ على تَزَيُّلِ شَيْءٍ مِن شَيْءٍ. مَيَّزْتُهُ تَمْييزًا ومِزْتُهُ مَيْزًا. وامْتازوا: تَمَيَّزَ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ، وانْمازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، ومِزْتُ الشيءَ: عَزَلْتُهُ وفَرَزْتُه[5]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّـهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ "يعني: ليفرّقَ اللّه بين فريقِ الكفّارِ وهمُ الفريقُ الخبيثُ وبين فريق المؤمنين وهمُ الفريقُ الطيّبُ"[6].

6) ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: (خبث) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّب مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاسِ، الخُبْثُ والخَبيثُ: ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصلُه الرّديءُ الدّخلةِ[7]، الجاري مجرَى خَبَثِ الحديدِ، هو خبيثٌ، أي رديءٌ[8]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّـهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ يعني الكفّارَ، وهمُ الفريقُ الخبيثُ[9].

7) ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيث، وأصلُ الطَّيِّب: ما تَستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيبةٌ إذا كانت حلالًا؛ وامرأةٌ طيّبةٌ إذا كانت حَصانًا عفيفةً[10]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني: فريقَ المؤمنين، وهمُ الفريقُ الطيّبُ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (غلب).
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حشر).
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(7) تَقولُ: إنّه لَعَفيف الدُّخْلة وإنّه لخَبيث الدُّخْلة أي باطِنُ أمره، داخِلَةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. ينظر: الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دخل).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(9) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(11) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

8) ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾: (ركم) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ. والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: 43]، الرَّكْمُ: جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ، ونَحْوِ ذلك مِنَ الشَّيْءِ المُرْتكِم بَعْضُهُ على بَعْضٍ. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[1]، وقولُه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يجعلُ بعضَهم على بعض[2].

9) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أَصْلٌ يَدُلُّ على النَّقْصِ. فمِن ذلك الخُسْرُ والخُسْرانُ، خَسَرْتُ الميزانَ: نَقَصْتُهُ، الخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاصُ رأسِ المال، ويُستعملُ في المقتَنَياتِ، كالمال والجاهِ في الدّنيا وهو الأكثرُ، وفي المقتَنَياتِ النّفسيّةِ كالصّحّةِ والسّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثّوابِ، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخسرانَ المبينَ، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: 15]، وكلُّ خُسرانٍ ذكره اللّه تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دون الخسرانِ المتعلّقِ بالمقتَنياتِ الدّنيويّةِ والتّجاراتِ البشريّةِ. خَسِرَتْ تجارَتُهُ أي خَسِرَ فيها، ورَبِحَتْ أي رَبِحَ فيها. وصَفْقَةٌ خاسِرَةٌ: غَيْرُ رابحةٍ[3]، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يعني "الذين كفروا وأنفقوا أموالَهم في طاعة الشّيطانِ هم الذين غُبنتْ صفقتُهم وخسرتْ تجارتُهم أنهم اشتروا بأموالهم عذابَ اللّه في الآخرةِ"[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سَعيُ الكفّارِ في عـداءِ الإسـلامِ لا يُكْسِبهُم غيرَ البوارِ والخُسْران

يُخبرُ اللّه تعالى عن عداءِ المشركين للّه ورسولِه والمؤمنين

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).
(2) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 129.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الواحدي، البسيط: 10/147.

ببيانِ الغرضِ من إنفاقِهم الأموالَ، فغرَضُهم "في إنفاقِ أموالِهم هو الصّدُّ عن سبيلِ الحقِّ بمحاربةِ رسولِ اللّه ﷺ، وجمعُ الجيوشِ لذلك، وإنفاقُ أموالِهم عليها، وذلك كما وقعَ مِن كفّارِ قريشٍ يومَ بدرٍ، ويومَ أحدٍ، ويومَ الأحزابِ، فإنّ الرّؤساءَ كانوا ينفقون أموالَهم على الجيشِ، ثُمّ أخبرَ اللّه سبحانه عنِ الغيبِ على وجه الإعجازِ، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: سيقعُ منهم هذا الإنفاقُ، ثم تكونُ عاقبةُ ذلك أن يكونَ إنفاقُهم حسرةً عليهم"[1]، ثمّ يُبيّنُ ﷻ من حشْرِهم إلى النّار، والمعنى: "أنّ اللّه يحشرُ الكافرين إلى جهنّمَ ليَميزَ الكافرين منَ المؤمنين بأنْ يجمعَ الكافرين جميعًا فيُلقيَهم في جهنّم، ثمّ أخبرَ عنهم أنّهم همُ الخاسرون، أي: الذين خابت سِعايتُهم وتبّتْ أيديهِم وصاروا إلى النّارِ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الاستئنافُ ودلالتُه في السّياق:

جاءتِ الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ مستأنفةً غيرَ معطوفةٍ لبيانِ نوعٍ آخرَ من أنواعِ صدِّهم، فلمّا ذكرَ أنّهم ﴿يَصُدُّونَ عَن ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أعقبَه بذكْرِ صدِّهم عن سبيلِ اللّه تعالى بإنفاقِ الأموالِ، وفي ذلك تأكيدٌ على ضلالِ سَعيِهم وذمِّ صدِّهم عنِ المسجد الحرامِ، وعن سبيلِ اللّه.

بُغضُ الكفّارِ لدينِ اللهِ متأصّل فيهم لا ينفكّون عنه

بلاغةُ الالتفاتِ في الضَّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ التفاتٌ منَ الخطاب الذي كان في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ إلى الغيبةِ تعميمًا للحُكمِ، فلو قال: (إنّكم تنفقون) لكان المقصودُ منَ النّصّ نفقتَهم على الخصوصِ، فلمّا عدلَ عنِ الخطابِ إلى

حسرةُ المنافقين على خُسرانِ أموالِهم عامّةٌ لكلِّ مُنفقٍ صادٍّ عن سبيلِ الله

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/526.

الغيبةِ صلُحَ النّصُّ لكلِّ أحدٍ ينفقُ مالَه بهذا المقصدِ والغرَضِ، كما أنّ الالتفاتَ عنهم فيه تحقيرٌ لهم.

فائدةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في صدْرِ الآيةِ:

التّوكيدِ يبعثَ الطّمأنينةَ في المؤمنين والخوْفَ في نفوسِ الكافرين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ خبرٌ منَ اللّه - تعالى - مؤكَّدٌ بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّةِ، وذكْرِ المسنَدِ إليه مرّتيْن، فإنّ اللّه تعالى يؤكّدُ أنّهم ينفقونَ الأموالَ ليصدّوا عن سبيل اللّه فلا يتحقّقُ لهم قصْدُهم[1]، وإنّما أكّدَ الإخبارَ؛ لأنّه إخبارٌ عن فعلٍ وما سيؤولُ إليه في المستقبل، فكان جديرًا بأن يؤكَّدَ ليقعَ موقعَه في نفوسِ السّامعين، وفي التّأكيدِ تقويةٌ لمضمونِ الخبرِ، فإنّهم يُنفقون تلك الأموالَ قصدًا منهم أن يحاربوا اللّه تعالى ويَصدّون عن سبيلِه، وهذا يدعو للعجَبِ والإنكارِ، وهذا يقتضي التّأكيدَ.

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ أقبحُ ما يوصفُ به الإنسانُ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عنهم بالاسمِ الموصولِ لذمِّهم، فهُم "يُنفقون أموالَهم يقصُدون بذلك الصّدَّ عن سبيلِ اللّه، والدّفعَ في صدْرِ الإسلام"[2]، فليس كلُّ المشركين أنفقوا، بل أنفقَ فئةٌ منهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

تجدّدُ الحسرةِ كلّما تجدّدَ الإنفاقُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ بالفعلِ المضارعِ عن إنفاقِهم "إشارةً إلى أنّ ذلك دأبُهم، وأنّ الإنفاقَ مستمرٌّ لإعدادِ العُددِ لغزوِ المسلمين، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي ويحصلُ في الحال والاستقبالِ"[3]، كما أنّ التّعبيرَ بذلك يدلُّ على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3123.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/525.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

إصرارِهم على الإنفاقِ، وأنّه إنفاقٌ قد تكرّرَ كثيرًا، وحصيلةُ ذلك أنّه إنفاقٌ كثيرٌ، مع استحضارِ صورتِهم البشعةِ في عملِهم.

نُكتةُ جمعِ لفظ الأموالِ، وإضافتِها إليهم:

الكفّارُ متعلّقون بالأموالِ الكثيرةِ، وهي مُنتهَى أمانيهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عمّا أنفقوه بلفظِ المالِ، والمالُ يُطلقُ على كلّ ما يملكُه الإنسانُ، والتّعبيرُ به في الآية مجموعًا يدلُّ على أنّهم أنفقوا أنواعًا كثيرةً منها، كالنّقودِ والمركوبِ والسّلاحِ وغيرِها، وإضافةُ الأموال إلى ضميرِهم لشدّةِ تعلّقِهم بها، وليدلَّ على العُمومِ "فكأنّه قيل: ينفقون أموالهم كلَّها مبالغةً، وإلّا فإنّهم ينفقون بعضَ أموالِهم"[1].

معنى اللّام في لفظ ﴿لِيَصُدُّواْ﴾:

الكشفُ عن الأغراضِ الحقيقيّةِ تبشيعٌ للتّقبيحِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عن علّةِ إنفاقِهم بإدخالِ اللّامِ التّعليليّةِ على الفعل، لبيانِ أنّ "غرضَهم الصّدُّ عنِ السّبيلِ بحسبِ الواقعِ وإنْ لم يكن كذلك في اعتقادِهم"[2]، فهم لم يؤمنوا أنّه سبيلُ اللّه، وذكرُ العلّةِ مع الفعلِ يدلُّ على قوّةِ عزمِهم وثباتِ نيّتِهم على صدِّهم ومحاربتِهم دينَ اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ عن علّةِ إنفاقِهم، بالفعلِ المضارعِ:

علّةُ الإنفاقِ مستمرّةٌ لرسوخِ الكُفرِ في نفوسِهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عنِ الغاية من إنفاقِهم بإدخالِ اللّامِ التّعليليّةِ على الفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ، فأفاد ذلك أنّ "الإنفاقَ مستمرٌّ؛ لأنّه مَنوطٌ بعلّةٍ ملازمةٍ لنفوسِهم، وهي بغضُ الإسلامِ وصدُّهمُ النّاسَ عنه"[3].

فائدةُ إضافةِ (السّبيلِ) إلى لفظِ الجلالةِ:

أضاف السّبيلَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/191، والزّمخشري، الكشاف: 2/219، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

لفظِ الجلالةِ تعظيمًا لأمرِ السّبيلِ وتفخيمًا له، فهو سبيلٌ "لا يُداني عظمتَه عظمةٌ، مع اتّساعِه ووضوحِه وسهولتِه"[1]، فخلعتِ الإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ على المضافِ إليه كلَّ أوصافِ الحُسنِ والفخامةِ؛ لأنّ السّبيلَ المنسوبَ إلى اللّه تعالى لا بدَّ أنّه يتّصفُ بالعظمةِ، كما أنّه يتّصفُ بصلاحِه لعبادِ اللّه تعالى. والمرادُ من ذلك إظهارُ بشاعةِ فعْلِهم، وسوءِ مسلكِهم؛ إذ إنّهم يصدّون عنِ السّبيلِ العظيمِ الذي رضيَه اللّه تعالى أن يكون منهاجًا لعبادِه.

سـبـيـلُ الـلـه عظيمُ الشّأن، فيه نجاةُ العبْدِ في الدّنيا والآخرةِ

معنَى الفاءِ في لفظ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ من الآية الكريمة:

افتتحَ الجملةَ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ بالفاءِ للتّفريعِ "على العلّة؛ لأنّهم لمّا كان الإنفاقُ دأبَهم لتلك العلّةِ المذكورةِ، كان ممّا يتفرّعُ على ذلك تكرّرُ هذا الإنفاقِ في المستقبلِ، أي: ستكونُ لهم شدائدُ من بأسِ المسلمين تضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجيوشِ لدفْعِ قوّةِ المسلمين"[2]. كما أنّ الفاءَ دلّتْ على قُربِ زمانِ الإنفاقِ، فالمرادُ مِن ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ في غزوةِ بدْرٍ، والمرادُ مِن ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: بعدَ ذلك في غزوةِ أُحدٍ، فالمرادُ بيانُ قُربِ زمانِ الإنفاقِ[3]، والضّميرُ المنصوبُ في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ "راجعٌ إلى الأموالِ لا بقيد كونِها المُنْفَقَةَ، بلِ الأموالُ الباقيةُ، أو بما يكتسبونَه"[4].

الـتّـفـريـعُ والـتّـعـقـيـبُ الـسّـريـعُ من مـتـطـلّـبـات الخطاب

الغرَضُ من تكرارِ فعْلِ الإنفاقِ، في السّياق:

كرّرَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الإنفاق) في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾، ولم يقل: (ينفقون أموالَهم ليصدّوا عن سبيل اللّه ثمّ تكونُ)؛ لأنّ هذا

حِرصُ المشركين عـلـى إنـفـاقِ أموالِهم وبذْلِها للصدِّ عن سبيلِ الله

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.

التّكرارَ يدلُّ على تأكيدِ حدوثِه، كما أنّ "في تكريرِ الإنفاقِ في الشّرطِ والجزاءِ الدّلالةَ على كمالِ سوءِ الإنفاقِ"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، الدّالِّ على الاستقبالِ:

إصرارُ المشركين على الإنفاقِ، تترتّبُ عليه الحسرةُ والهزيمةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أخبرَ عن إنفاقِهم الذي لم يقعْ بعدُ[2] بالفعلِ المضارعِ المقترنِ بحرفِ الاستقبالِ للدّلالةِ على تكرارِ وقوعِ الإنفاق منهم وتجدُّده، كما دلَّ حرفُ السّين على تأكيدِ حدوثِ ذلك وما يعقبُه منَ الحسرةِ والخُسرانِ، فهو إخبارٌ بوقوعِ مضمونِ الخبرِ على وجهِ الحتْمِ "أي: بحُكمٍ قاهرٍ لهم، لا يَقدِرون على الانفكاكِ عنه"[3].

براعةُ التّعبيرِ بالضّمائرِ في: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾:

جولةُ الباطلِ ساعةٌ، ثمّ تكونُ الحسرةُ والنّدامةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء التّعبيرُ في الجُملتَيْن مُتباينًا، فلم يقلْ: (ثمّ إنّهم سينفقون أموالهم)، كما لم يقل: (فسيتحسّرون)؛ لأنّ التّركيبَ بجمْعِ (الفاءِ، وفعلِ الإنفاق، وضميرِ الفاعل، وضميرِ الأموال) في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ يدلُّ على الإيجازِ، فأخبرَ عن ذلك بطريقةِ العُجالةِ بالتّقليل منَ الألفاظِ إشعارًا بأنّ زمانَ الاستعدادِ والانتشاءِ به سريعُ الانقضاء، ثمّ لمّا عبّرَ عن ما بعد الإنفاقِ ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء التّركيبُ مُستطيلًا مُشعرًا بطولِ الزّمان إيماءً إلى شدّةِ تحسّرِهم، ولم يقل: (فسيتحسّرون).

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها هنا:

رُتبةُ الحسرةِ في الألمِ أعلى من رُتبةِ الإنفاقِ

أخبرَ عن مآلِ إنفاقِهم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ فآثرَ التّعبيرَ بحرفِ العطفِ (ثُمّ) الدّالِّ على التّراخي،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/97.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/21 - 22.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

فمدلولُها "إمّا التّراخي في الزّمان؛ لما بين الإنفاقِ المذكورِ وبين ظهورِ دولةِ الإسلامِ منَ الامتدادِ، وإمّا التّراخي في الرُّتبة؛ لما بين بذْلِ الأموالِ وعدمِ حُصولِ المقصودِ منَ المباينةِ"[1]، فمعنى التّراخي الزّمانيِّ أنّ الأموالَ تكونُ حسرةً بعد إنفاقِها بمدّةٍ[2]، وأمّا التّراخي في الرُّتبةِ فمعناه "غايةُ بُعد ما بين غرضِهم في الإنفاق، وبين ما يحصلُ منه، ويقعُ بعدَه"[3]، فما كان في أوهامِهم هو استئصالُ شأفةِ المسلمين، ولكنّ ما نالوه هو الخُسرانُ والخيبةُ، وما أبعدَ ما بين الرُّتبتَيْن!

بلاغةُ المجاز في إسناد الحسرة إلى الأموال:

حينَما يكونُ إنفاقُ المالِ سببًا للحَسرةِ والنّدامةِ

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أسندَ الحسرةَ إلى الأموالِ على سبيلِ المجازِ المرسلِ؛ لأنّ العلاقةَ بين الأموالِ والحسرةِ علاقةُ المسبِّب والمسبَّب، فإنفاقُ الأموالِ هو سببُ الحسرةِ[4]، "أي: أنَّ هذا الإنفاقَ يكونُ عاقبتُه حسرةً؛ لأنَّهُ يذهبُ المالُ ولا يحصلُ المقصودُ، بل يُغلبون في آخرِ الأمرِ"[5].

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعيّةِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

بيان أنّ الأموال حسرةٌ دائمةٌ ومُستمرّةٌ على المدى

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عبّرَ عن وجودِ الحسرةِ بالفعلِ (يكون) بعد حرفِ العطفِ (ثمّ) للدّلالةِ أنّ كونَ تلك الحسرةِ متجدّدٌ، وليس التّحسّرُ هو المتجدّدُ، فلم يقل: (ثمّ هم يتحسّرون)؛ لأنّ المرادَ ليس تجدّدَ الحسرةِ، بل تجدّدُ وجودِ الحسرةِ، وهذا يدلُّ على أنّ استمرارَهم بالإنفاقِ سيصاحبُه استمرارٌ بوجودِ الحسرةِ وتكوُّنِها.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.

غرضُ تقديمِ شبْهِ الجُملةِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ على الخبرِ، فلم يقلْ: (ثم تكونُ حسرة عليهم)؛ للدّلالةِ على اختصاصِ الحسرة بهم، فهي حسرةٌ خاصّةٌ بالمنْفقين، لا على جميعِ الكافرين الذين سيُغلبون، فالحسرةُ كائنةٌ على الوجهِ الأخصِّ على الذين أنفقوا أموالَهم، ويمكنُ أن يكونَ غرضُ التّقديم، لأنّ العنايةَ منصبّةٌ هنا على مآلِهم وما حلَّ بهم.

حسرةُ هؤلاءِ المشركين المنفقين لا تُشبهُ حسرةَ غيرِهم

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في شبه الجملة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ بحرف الاستعلاءِ لبيانِ تمكّنِ الحسرةِ منهم، وفي ذلك مبالغةٌ في شدّة النّدَمِ والتّحسّرِ على ما فاتَهم بفقدِ الأموالِ وخُسرانِ القتالِ، فالحسرةُ كائنةٌ لهم كونًا يعلوهم، فاستقرّتْ فوقَهم فهيَ في مكانٍ مكينٍ.

الحسرةُ متمكّنةٌ منهم موجودةٌ وجودًا استقرَّ فوقَهم

بلاغةُ الإخبارِ بالمصدرِ بلفظ ﴿حَسْرَةً﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أخبرَ عنِ الأموال بأنّها حسرةٌ، فجعلَ الأموالَ نفسَها حسرةً، على سبيلِ التّشبيهِ البليغِ، فحذفَ أداةَ التّشبيهِ ووجْهَ الشَّبهِ، وإنّما الحسرةُ هو عاقبةُ إنفاقِها وضياعِها بلا تحقيقِ المقصودِ منها، فالإخبارُ "عنها بنفسِ الحسرةِ مبالغةٌ، مثلَ الإخبارِ بالمصادرِ؛ لأنّ الأموالَ سببُ التّحسّرِ لا سببَ الحسرةِ نفسِها"[1].

عندما تُصبحُ الأموالُ المنفَقةُ حَسرةً على أصحابِها

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿حَسْرَةً﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء لفظُ الحسرةِ نكرةً؛ تهويلًا لشأنِ ما نالَهم منَ الحسرةِ والغمِّ، فهو تحسّرٌ كبيرٌ لما فاتَهم من إهدارِ أموالِهم من غير تحقيقِ المقصودِ؛ "لأنَّ أموالَهم تذهبُ ويُغلبون ولا يَظفرون بما يُؤمّلونَ"[2].

أعظمُ الحسرةِ بذلُ الأموالِ دونَ تحقيقِ المقصودِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341، والزمخشريّ، الكشاف: 2/219، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

معنى (ثمّ) العاطفة، وأثرها في السّياق:

مآلُ الكفّارِ إلى الخُسرانِ مهما طالَ الزّمنُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آثرَ العطفَ بـ(ثمّ)، وهي مثلُ التي قبْلَها تدلُّ في هذا الموضعِ على التّراخي الزّمانيِّ الحقيقيِّ، والتّراخي في الرُّتبةِ[1]، فالتّراخي في الزّمانِ يدلُّ على طولِ الحربِ بينهم وأنّهم سيخْسَرون "آخرَ الأمرِ وإن كان الحربُ بينهم سجالًا قبْلَ ذلك"[2]، وأمّا التّراخي في الرُّتبة، فهو التّباينُ بين إنفاقِ الأموالِ لغايةٍ ما، وعدمِ حصولِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، بل تحقّقَ خلافُ ما كانوا يأملون[3]. وهذا إخبارٌ بالغيبِ، وقد تحقّقَ كما قال، فيكونُ من دلائلِ النّبوّةِ؛ لأنّه أخبرَ عنه قبلَ وقوعِه[4].

سِرُّ بناءِ الفعلِ: ﴿يُغْلَبُونَ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

للهِ تعالى جُنودُه التي يُحقّقُ بها قدرَه الغالبَ

آثرَ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أن يُعبّرَ بالفعلِ المبنيّ لما لم يُسمَّ فاعلُه "لكونِ فاعلِ الفعلِ معلومًا بالسّياقِ؛ فإنّ أهلَ مكّةَ ما كانوا يقاتلون غيرَ المسلمين"[5]، ويُضافُ إلى ذلك أنّ الغرَضَ من الخبرِ هنا الاهتمامُ بعدمِ تحقُّقِ غايتِهم وأنّهم سيقعُ عليهم الغَلَبُ، لا بالنّظرِ لكونِه من مُعيّن، فليس من مرادِ السّياقِ أن يُخبر عن مَن سيغلبُهم، بلِ الغرضُ هو عدمُ تحقّقِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، كما أنّ الغَلبَ إنّما يكونُ بإذن اللّه تعالى وتوفيقِه، فالفاعلُ قد يكونُ حقيقيًّا وهو اللّه تعالى، أو مجازيًّا وهو المسلمون، فجاء الفعلُ مبنيًّا لغيرِ الفاعلِ ليشملَ كلا الفاعلَيْن، كما أنّ فيه إيجازًا في التّعبيرِ.

سِرُّ تقديمِ الحسرةِ على الغَلَبِ في سياق الآية:

ضياعُ الأموالِ أخفُّ على النّفسِ منَ الانهزامِ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ قدّم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، والشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.
(4) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/644، وابن جزي، التسهيل: 1/326.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341 - 342.

ذكرَ الحسرة وأخّرَ ذكرَ الغَلَب؛ لأنّ الحسرةَ بضياع الأموال أقلُّ شأنًا منَ الانهزام، فقدّمَ وأخّرَ "ارتقاءً في الإنذار بخيبتِهم وخذلانِهم، فإنّهم بعد أنْ لم يحصلوا من إنفاقِهم على طائلٍ توعّدوا بأنّهم سيغلبُهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضًا يومَ بدْرٍ"[1].

فائدة الخبرِ في السّياق:

جاء الخبرُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ المتضمّنُ إخبارَهم بما سيؤولُ إليه إنفاقُهم إنذارًا لهم "بأنّهم لا يحصلون من إنفاقِهم على طائلٍ فيما أنفقوا لأجلِه؛ لأنّ المنفقَ إنّما يتحسّرُ ويندمُ إذا لم يحْصُل له المقصودُ من إنفاقِه، ومعنى ذلك أنّهم يُنفقون ليغلِبوا فلا يَغْلِبونَ"[2].

اللـه لـطـيـفٌ بعباده يُنذرُهم بمآلِ أفعالِهم، لعلَّ ذلك يُحدثُ لهم ذكرًا

وهو خبرٌ عنِ انتفاءِ تحقيقِ أهدافِهم زجرًا لهم عنِ الاستمرارِ في الإنفاقِ، فالمقصودُ "من هذا الكلامِ أنّهم لا يَستفيدون من بذْلِهم أموالَهم في تلك الإنفاقاتِ إلّا الحسرةَ والخيبةَ في الدّنيا، والعذابَ الشّديدَ في الآخرة، وذلك يوجبُ الزّجرَ العظيمَ عن ذلك الإنفاقِ"[3].

دلالةُ العطْفِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في الآية:

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ معطوفةٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ إشراكًا لهم في العاقبةِ، فهم سيُغْلبون جميعًا[4]، فدلّ العطفُ على أنّه حُكمٌ عليهم بالغَلَبِ وبالحشْرِ إلى النّارِ.

حُكمُ الله على المشركين في الدّنيا بالهزيمةِ وفي الآخرةِ بالنّارِ الأليمة

غرَضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ جاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 7/99.

المسنَدُ إليه معرَّفًا بالموصوليّةِ للدّلالةِ على ذمِّهم لإصرارِهم على كفرِهم وعنادِهم "أي: استمرّوا على الكفرِ؛ لأنّ مِن هؤلاء الكفّارِ المذكورين سابقًا مَن أسلمَ وحسُن إسلامُه"[1]، كما أنّ التّعبيرَ عنهم بالموصولِ يُظهرُ علّةَ إناطةِ الحُكم بهم بما في حيّزِ صلةِ الموصولِ؛ فإنّما سيقوا إلى جهنّمَ بسببِ كُفرِهم، فهو "إيماءٌ إلى أنّ علّةَ استحقاقِهم الأمرين في الدّنيا والآخرة، هو وصفُ الكفرِ، فيُعلَمُ أنّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلعوا عن هذا الوصْفِ قبل حلولِ الأمرين بهم"[2].

التّعريفُ بالموصولِ يُظهرُ علّةَ الحُكمِ عليهم بالحشْرِ إلى جهنّمَ

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في الآية:

وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، فلم يقل: (وإلى جهنّم يُحشرون)؛ "لأنّه كان فيهم مَن أسلمَ، بل ذكرَ أنّ الذين بقَوا على الكفر يكونون كذلك"[3]، فهو قد خصَّ الكفّارَ منهم؛ لأنّ فيهم من تركَ الكفرَ، فلو عبّر عنهم بالضّميرِ لكان شاملًا لهم جميعًا، والحالُ ليس كذلك، كما أنّه يُفصحُ "عنِ التّشنيع بهم في هذا الإنذارِ حتّى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارةٍ"[4].

في التّصريحِ بالكفرِ تشنيعٌ عليهم، وإخراجٌ لِمَن آمنَ منهم

سرّ التّخصيص بتقديمِ شبْهِ الجُملة: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ للدّلالةِ على تخصيصِ جهةِ مسيرِهم وسَوْقِهم، فهم يُساقون إلى النّارِ لا إلى غيرِها[5]، فليس ثَمَّ مكانٌ يُحشرون إليه غيرُ جهنّمَ، وفي هذا التّخصيصِ تغليظٌ عليهم بقطعِ كلِّ أملٍ بالنّجاة، فحصرَ

ليس للمشركين مكانٌ يُحشرون إليه إلّا النّارُ، وبئس القرار

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والمراغي، تفسير المراغي: 9/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والواحدي، البسيط: 10/144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

مصيرَهم بغايةٍ واحدةٍ لا فرارَ منها، وفائدةُ هذا التّقديمِ "دَفعُ وهْمِ القَرارِ في مَجمعٍ آخرَ"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾، من حيث المادّةُ اللّغويّةُ والصّيغةُ:

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ عن جمْعِ الكافرين إلى جهنّمَ بالفعلِ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ إيماءً إلى "كثرة أهلِ جهنّمَ، وإلى أنّهم يكونون في ضيقٍ محشورون"[2]، فدلَّ هذا الفعلُ على أنّهم يُساقون مُكتظّين مُتزاحمين بمشهدٍ مَهينٍ. وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعلِ المبنيِّ للمفعول؛ لأنّ الأهمَّ هو الحَشرُ، لا كونُه من مُعيّن[3]، والتّعبيرُ بالمضارع لتصويرِ ذلك المشهدِ واستحضارِه في الذّهن، كما أنّه يدلُّ على أنّه حشْرٌ ممتدٌّ طويلُ الزّمن.

الـذُّلُّ والـهـوانُ في الـحـشْـرِ إلى جـهـنّـم، حيث المصير السّاحق

معنى اللّامِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾ ودلالتُها هنا:

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ دالّةٌ على التّعليلِ، متعلّقةٌ بقولِه: ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والغرضُ من ذلك "بيانُ أنّ مِن حِكمةِ حشْرِهم إلى جهنّمَ أن يتميّز الفريقُ الخبيثُ من النّاس منَ الفريقِ الطّيّبِ في يومِ الحشْرِ؛ لأنّ العلّةَ غيرَ المؤثّرةِ تكونُ متعدّدةً، فتمْييزُ الخبيثِ منَ الطّيّب من جُملة الحِكمِ لحشْرِ الكافرين إلى جهنّمَ"[4].

غايةُ الحشْرِ أن يفصلَ الله بين الطّيّبِ والخبيثِ

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّةِ المتواترةِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾:

قُرئَ الفعلُ ﴿لِيَمِيزَ﴾ في رواية جمهور القرّاء: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، منَ الفعلِ (ماز، يميزُ) بمعنى: فرزَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (ليُمَيِّزَ) بضمّ الياء والتّشديد، من الفعلِ (ميّز يميِّزُ)، بمعنى: محّصَ الفرزَ، وعليه جاء قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾

الـفـصـلُ بين الـنّـاسِ على وفـقِ صفاتِهم مُتحقّقٌ ثابتٌ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3124.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

[الملك: 8]، وكونُ الفعلِ مُسندًا إلى اللّه تعالى في كلتا القراءتَين فإنّهما مُستويتان[1]، غيرَ أنّ هذا الاستواءَ كائنٌ في الإسنادِ، لكنْ في الدّلالة فإنّ القراءةَ بالتّشديدِ تدلُّ على المبالغةِ[2]؛ لأنّ متعلّقَه كثيرٌ، إذ إنّ هذا التّمييزَ يشملُ كلَّ النّاس يومَ الحسابِ، فالكثرةُ هنا اقتضتِ المبالغةَ.

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّياق:

تعظيمُ الشّأنِ بذكرِ ذي الجلالِ، وتربيّةُ المهابةِ في النّفوس

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أسندَ فعْلَ التّمييز إلى لفظِ الجلالةِ، استحضارًا بأنّ الذي سيميّزُهم هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ[3]، فيكونُ تمييزًا على الشّكلِ الأكملِ، فذكرُ لفظِ الجلالة يخلعُ العظمةَ والهيبةَ على مضمون سياقِه، فاللّه ذو الجلالِ هو الذي يميزُ الكافرين، فإنّ الشّأنَ عظيمٌ وإنّه لنبأٌ جليلٌ.

الدّلالاتُ الحقيقيّةُ والمجازيّةُ للفظي ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

تشبيهُ المعنويِّ بالحسّيِّ أبلغُ في الإفهامِ، وأدلُّ على علّةِ التّمْييزِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ عبّرَ عنِ المؤمنين والكافرين بصفتَي (الطّيّب، والخبيث) وهما وصْفان حِسّيّان للأشياء، فأُطلقا في الآية على موصوفٍ معنويٍّ؛ فالخبيثُ هو "الشّيءُ الموصوفُ بالخبثِ والخباثةِ، وحقيقةُ ذلك أنّه حالةٌ حسّيّةٌ لشيءٍ تجعلُه مكروهًا، مثلَ القذرِ، والوسخِ، ويُطلقُ الخُبثُ مجازًا على الحالةِ المعنويّةِ من نحوِ ما ذكرنا تشبيهًا للمعقولِ بالمحسوسِ، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ حُذف فيها المشَبّهان، والمرادُ به هنا خِسّةُ النّفوسِ الصادرةِ عنها مفاسدُ الأعمالِ، والطّيّبُ الموصوفُ بالطّيّب ضدُّ الخبث بإطلاقَيْه؛ فالكفرُ خبثٌ لأنّ أساسَه الاعتقادُ الفاسدُ، فنفسُ صاحبِه تتصوّرُ الأشياءَ على خلافِ حقائقِها فلا جرمَ أن

(1) الفارسي، الحجّة: 3/104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

يأتيَ صاحبُها بالأفعال على خلافِ وجهِها، ثم إنَّ شرائعَ أهلِ الكفرِ تأمرُ بالمفاسدِ والضّلالاتِ وتَصرفُ عنِ المصالحِ والهدايةِ بسببِ السّلوكِ في طرائقِ الجهلِ وتقليبِ حقائقِ الأمورِ، وما من ضلالةٍ إلا وهي تُفضي بصاحبِها إلى أُخرى مثلِها، والإيمانُ بخلافِ ذلك"[1].

دلالة (أل) في: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

الإيمانُ والكفرُ أساسُ التّمايُزِ بين النّاسِ يومَ القيامةِ

عُرِّفَ (الخبيث والطّيّب) في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ تعريفَ الجنسِ، فالألف واللّام دالّتان على الجنسِ، فالمرادُ منَ الوصفين الجنسُ في الخبيث والطّيب[2]، "والمعنى: ليميزَ اللّه الفريقَ الخبيثَ منَ الكُفّارِ منَ الفريقِ الطَّيّبِ منَ المؤمنين، فيجعلَ الفريقَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ"[3]، فليس المرادُ أن يفصلَ اللّه تعالى بين فردَيْن أحدُهما متّصفٌ بكونِه خبيثًا والآخرُ متّصفٌ بكونِه طيّبًا، بلِ الفصلُ بين كلِّ النّاسِ على وفْقِ صفتَيِ الطّيبِ والخبثِ الدّالّتين مجازًا على المؤمنين والكافرين.

بلاغةُ طباقِ الإيجابِ بين: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

الجمعُ بين المتضادَّين يدلُّ على معيارِ التّمييزِ

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ طباقُ إيجابٍ؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادّين مُثبتَين ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾، وأفادَ الطّباقُ هنا تنبيهَ السّامعِ إلى ما بين طرفَيِ الطّباقِ من فرقٍ؛ فهو يشيرُ إلى أنّ التّمييزَ كائنٌ بين الفريقين لِما بينهما من تضادٍّ في اتّصافِهما بالطّيب والخُبث؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياءُ، كما أفادَ جمعُ الصّفتين معًا التّنبيهَ على أنّ المرادَ بهما المدحُ والذّمُّ، فلو قال: (ليميز الكافرين من المؤمنين) لما أفادَ وصفَ المدحَ والذّمِّ الذي أفادتْه الصّفتانِ المذكورتانِ معًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/78.

معنى الحرف (من) في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾:

فصلُ الضّدّ عن ضـدّه، لينتظم المعنى، وترسى الدّلالة

(مِن) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ للفصلِ والتّمييزِ؛ لأنّها داخلةٌ بين متضادَّين، وهي كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: 179]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220]، وهو معنى أثبتَه لها ابنُ مالك: "وأشرتُ بذكرِ الفَصْلِ إلى دخولِها على ثاني المتضادَّين"[1]. وقد خرّجهُ ابنُ هشام على معنى الابتداءِ أو أنّه بمعنى (عن) للتّجاوزِ، وقالَ في نقْدِ قولِ ابنِ مالك: "وَفيه نظرٌ؛ لِأنّ الفَصْلَ مُسْتَفادٌ منَ العامِلِ فإنّ (ماز وميز) بمَعْنى فصلَ، والعلمُ صفةٌ توجبُ التَّمْييزَ، والظّاهِرُ أنّ (مِن) في الآيتين للابتداءِ أو بمَعْنى (عَن)"[2]. وقدِ استحسن معنَى الفصلِ العلّامةُ ابنُ عاشور: "وهو معنى رشيقٌ لا غنى عن إثباتِه، وهو معنًى متوسّطٌ بين معنى مِن الابتداء ومعنى البدليّة حين لا يصلحُ متعلّقُ المجرورِ لمعنى الابتدائيةِ المحضِ، ولا لمعنى البدليّةِ المحضِ فحدَثَ معنًى وسطٌ"[3].

نكتةُ تقديمِ الخبيثِ على الطّيّبِ في الذّكرِ:

ما كـان ألصقَ بالسّـياقِ كان أحقَّ بالتّقديمِ

قدّمَ صفةَ الخبيثِ على الطّيّب في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾؛ لأنّ السّياقَ في الحديثِ عنِ الكافرين وحشْرِهم إلى النّار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فإنّ الكافرين هم المقصودون بالتّمييزِ والفصلِ عنِ المؤمنين، نكايةً بهم.

فائدةُ عطْفِ جملة ﴿وَيَجۡعَلَ﴾ على ما تقدَّمَها:

لا يليقُ الخبيثُ إلا بالخبيثِ مثْلِه

عطفَ قولَه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ بالواو إشراكًا للجعْلِ

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/137.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 424 - 425.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/358.

بكونه غايةً ثانيةً للحشْرِ إلى جهنّمَ، فجعلُ "الخبيثِ بعضِه على بعض علّةٌ أخرى لحشْرِ الكافرين إلى جهنّم، ولذلك عطفَ بالواو، فالمقصودُ جمعُ الخبيث وإن اختلفت أصنافُه في مجمعٍ واحد، لزيادة تمييزِه عنِ الطّيّب"[1].

نُكتةُ تكرارِ الخبيث في: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ﴾:

تـأكـيـدُ صـفـةِ الخبثِ بتكرارِها

في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ تكرّرَ لفظُ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ لبيان المقصودِ بالجعْلِ، وفيه تصريحٌ بعلّةِ ذلك الجعْلِ على تلك الهيئةِ، فلكونِه خبُثَ وفقدَ أيَّ اعتبارٍ للتّكريم، فآلَ به أن يكون مركومًا بعضَه على بعض.

موقعُ عبارة ﴿بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ودلالتُه:

تنوّعُ الموقعِ ثراءٌ للمعنى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يُعربُ قولُه: ﴿بَعۡضَهُۥ﴾ بدلًا منَ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾، بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وقولُه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في موضعِ المفعولِ الثّاني[2]، ويجوزُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أن يكونَ في موضعِ الحالِ، والتّقديرُ: ويجعلُ الخبيثَ بعضَه عاليًا على بعضٍ، أي: بعضَه فوق بعضٍ[3]. "وفي جمْعِه بهذه الكيفيّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يجعلُ بعضَهم على بعضٍ حتّى يصيروا رُكامًا"[4]، وهذا التّركيبُ يفيدُ أنّ الفعلَ متشاركٌ بين الأبعاضِ؛ فإنّ بعضَهم كائنٌ فوقَ بعضِهم الآخرِ، كما أنّ بعضَهم تحت بعضٍ في الوقتِ ذاتِه، فهو للدّلالةِ على التّشاركِ في الفعلِ والتّشاركِ في الفوقيةِ والتّحتيةِ في الوقتِ ذاتِه.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾:

تـأكـيـدُ هـلاكِ الخبيثِ قانون إلـهـيّ للـهلاك والعقاب

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[5]، وهو "عطفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514، والعليمي، فتح الرحمن: 3/113.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

تفسيرٍ يؤكّدُ الذي قبْلَه في إرادةِ الحقيقةِ مع إفهامِ شدّةِ الاتّصال حتّى يصيرَ الكلُّ كالشّيءِ الواحدِ، كالسّحابِ المركومِ"[1]، فعطفُ الرّكمِ على جعْلِ الخبيثِ بعضَه فوق بعضٍ يدلُّ على أنّه جعلَ كذلك على وجهِ الحقيقةِ، ويشيرُ إلى أنّ كونَ بعضِه على بعض كائنٌ على طريقةِ التّراكمِ الدّالّةِ على الإهمالِ وقلّةِ المبالاة بهذا المركوم؛ إذ إنّه رُكِمَ لأنّه خلوٌ من قيمِ الاعتبارِ.

سِرُّ إفرادِ الضّميرِ في لفظ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾:

الضّمائرُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عائدةٌ على الخبيثِ، وجاء الضّميرُ بالإفراد مع أنّه أريدَ بالخبيثِ الكافرون اعتبارًا بلفظِه، فالمركوم هو الخبيثُ كلُّه.

المركوم هو الخبثُ كلّه

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل: (يَرْكُمَهُ) مُضارِعًا:

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن جمعِ الخبيثِ في جهنّمَ على وجهِ التّراكمِ بيانًا لشدّةِ التّزاحُمِ بحيث إنّه كائنٌ كالشّيءِ المتراصِّ المتلاصقِ امتهانًا له وازدراءً به. ويدلُّ الفعلُ المضارعُ على استمرارِ الفعلِ مُشعرًا بطولِ المدّةِ الزّمانيّةِ تعبيرًا عن كثرةِ ذلك الخبيثِ، كما أنّه يستحضرُ ذلك التّراكمَ باستجلابِ صورتِه بالفعلِ المضارعِ، فهو مشهدٌ تصويريٌّ لركْمِ ذلك الخبيثِ المستمرِّ.

امتهانُ الخبثِ وازدراؤه، ممّا يؤكّد مفسدته وهوانه

بلاغة جملة ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾، بين الحقيقةِ والمجازِ:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن جمعِهم بالتّراكمِ تعبيرًا عن فرطِ ازدحامِهم، فهو جمعٌ وضمٌّ حتّى يتراكمَ بعضُه فوقَ بعضٍ[2]؛ فالخبيثُ أمرٌ معنويٌّ لا يُتصوّر فيه التّراكمُ، فهو استعارةٌ في تشبيهِ جمْعِ الخبيثِ كأنّه شيءٌ من شأنِه

تجسيدُ الخبثِ مَدعاةٌ للنّفورِ منه، والانْصرافِ عنه

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.

أن يتراكمَ إذ "جعَلَ الكفّارَ في الانضمامِ والازدحامِ، والاجتماعِ في النّارِ شيئًا مركومًا، كحطبٍ مرتكبٍ بعضُه على بعض، مجموعٍ ملقىً في جهنّمَ مبالغةً"[1].

نُكتةُ التّوكيدِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

الحكمُ شاملٌ لكلِ فردٍ من أفرادِ الخبيثِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أن يكونَ حالًا، ويجوزُ أن يكونَ توكيدًا[2]، فالحالُ باعتبار أنّه بيانٌ لكيفيةِ التّراكُم، بمعنى إنّه يتراكمُ في حالةِ كونِ المركومِ جميعَ الخبيثِ، والتّأكيدُ لنفْيِ احتمالِ عدمِ شمولِ جميعِ الخبيثِ بالتّراكُمِ، فلمّا قال ﴿جَمِيعًا﴾ دلَّ على أنّ الحُكمَ شاملٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الخبيثِ.

معنى حَرفِ الفاءِ في لفظ: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ ودلالتُه:

سرعةُ الحشْرِ إلى جهنّمَ، وصف للمصير، عند العادل القدير

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الفعلَ (يركمُه) على الفعلِ (يجعلُ) بحرف العطفِ الفاءِ للدّلالةِ على سُرعةِ الرّكمِ؛ إذ إنّه لا يلبثُ أن يكونَ مركومًا بعد الجمْعِ، وأنّ الرّكْمَ مسبّبٌ عن ذلك الجعْلِ ومترتّبٌ عليه. وكلُّ ذلك يشيرُ إلى سرعة حشْرِهم إلى جهنّم بحيثُ إنّهم لا يُؤخَّرون عنها بشيءٍ ولا يفصلُ بينهم وبين الدّخولِ فيها على وجه التّراكمِ حائلٌ.

دلالةُ لفظ (الجعْلِ) في جهنّمَ:

التّعجيلُ بعذابِ الكفّارِ وإدخالِهم النّارَ جزاءً وِفاقًا

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن مُكثِهم ودخولِهم النّار بقولِه: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾، ولم يقل: (فيدخلَه جهنّم) لأنّه حَكمَ عليهم بذلك فالجعلُ بمعنى الحُكم بالشّيءِ على الشّيءِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

[القصص: 7][1]، فتراكمُ الخبيثِ في النّار إنّما كان بحُكم اللّه تعالى، وفي ذلك تأكيدٌ على لُبثِهم فيها، فكأنّ الخبيثَ يومَ القيامةِ يُجعلُ في النّار جعلًا، بيانًا لسرعةِ إدخالِهم وإنجازِ العذاب لهم، كما أشارت الفاءُ العاطفةُ إلى تلك السّرعةِ.

دلالةُ الختْمِ بالجملةِ الاستئنافيةِ في الآية:

دخـولُ هـؤلاء المـحـكـومـين إلى الـنّـارِ هو الخُسرانُ المبينُ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، الجملةُ فيها استئنافيّةٌ بيانيّةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالِهم، لبيانِ أنّ الذين حَكمَ عليهم بأن يُحشروا إلى النّارِ على الوجه الموصوفِ بالتّراكمِ بعضِهم فوق بعض مزدحمين مُهانين في غايةِ الخُسران، فلمّا كان ذلك في غايةِ الخسرانِ استأنفَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جامعًا تصريحًا بالعمومِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[2].

الغرَضُ من أسلوبِ القصْرِ، في فاصلةِ الآية:

ليـس بـعـد خَـسارةِ الجنّة ورِضْـوانِ الله تعالى خسارةٌ

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قصْرٌ طريقُه تعريفُ الطّرفين، وأكّدَ بضميرِ الفصْلِ للمبالغةِ في خُسرانِهم، فلا خُسرانَ موجودٌ غيرُ خُسرانِهم، فهمُ "الكاملون في الخُسران لأنّهم خسِروا أنفسَهم وأموالَهم"[3]، وهو قصْرٌ إضافيٌّ ادّعائيٌّ، فهو مبالغةٌ في اتّصافِهم بالخُسران[4]، وإنّما حصرَهم بالخسران؛ لأنّهم اشترَوْا بأموالِهم النّارَ والهلاكَ[5]، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ.

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، والجمْعِ:

اسـمُ الإشـارةِ يـحـيـلُ إلى الـصّـفـاتِ الّتي هي علّةُ إسنادِ الخُسران إليهم

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عبّرَ عنهم باسمِ الإشارة دونَ الضّمير، فلم يقل: (هم الخاسرون، أو: إنّهم هم الخاسرون)؛

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

فآثرَ اسمَ الإشارة "للتّنبيه على أنّ استحقاقَهم الخبرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ كان بسببِ الصّفاتِ التي ذُكرت قبلَ اسمِ الإشارةِ، فإنّ مَن كانت تلك حالَه كان حقيقًا بأنّه قد خَسِرَ أعظمَ الخُسران؛ لأنّه خَسِر منافعَ الدّنيا ومنافعَ الآخرة"[1]، فاسمُ الإشارة يحيلُ إلى الصّفاتِ المذكورةِ آنفًا، فيتضمّنُ علّةَ إسنادِ الخُسرانِ إليهم، وقد جاء اسمُ الإشارةِ بصيغةِ البُعدِ، إذ إنّ "ما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ درجتِهم في الخُبثِ"[2]، فلمّا كان الخُسران مُنحصرًا بهم على وجه المبالغةِ، فكان اسمُ الإشارةِ الدّالُّ على البُعدِ يشيرُ إلى أنّهم بلغوا النّهايةَ في الخبثِ، كما جاء التّعبيرُ عنِ (الخبيث والطّيب) باسم الإشارةِ بصيغة الجمعِ، ولم يقل: (ذلك)؛ لأنّه أحالَ الكلامَ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، وفيه تصريحٌ بأنّ ذلك الحكمَ عامٌّ للأفرادِ المتّصفين بذلك، ولو قال: (ذلك هو الخسران المبين) لم يكن في ذلك تصريحٌ بشمولِ الأفرادِ بهذا الحُكمِ، فجاء اسمُ الإشارة جمعًا إشارةً للأفرادِ.

معنَى (ال) في لفظ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ودلالتُه:

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أدخلَ الألفَ واللّام الدالّةَ على تعريفِ الجنسِ في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تحقيقًا للقصْرِ، فجنسُ الخاسرين مُنحصرٌ بهم، فهم "الكاملون في الخُسران؛ لأنّهم خسروا أنفسَهم وأموالَهم"[3]، فلا خاسرَ غيرُهم.

أخسرُ الخاسرين من خسرَ نفسَه ومالَه، وانتهَى أمرُه إلى الجحيمِ في مآله

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّكْمُ والجمْعُ والقَرْءُ:

الجَمْعُ: ضمُّ الشّيءِ بتقريب بعضِه من بعض، يقال: جَمَعْتُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

الجمعُ عامّ، والرّكمُ جمعٌ بإلقاءِ شيءٍ فوق شيءٍ، والقرءُ جمعٌ باحتواءٍ

فاجْتَمعَ[1]، فهو جمعٌ عامٌّ مطلقٌ. أمّا الرّكم والقَرءُ: فهما أخصُّ من الجمْع، فيدلّان على جمعٍ بكيفيّة ما؛ أمّا القَرء: فهو من (قَرِيَ) أَصْلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ. مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً لاجْتِماعِ النّاسِ فيها. ومنه القرآنُ، كَأَنَّهُ سُمّيَ بذلك لِجَمْعِه ما فيهِ مِنَ الأَحْكامِ والقِصَصِ وغَيْرِ ذلك. وأقْرَأتِ المَرْأَةُ كَأَنَّها قد جَمعَتْ دَمَها في جَوْفِها فلَم تُرْخِه. فهو تجمُّعُ ما شأنُه الحركةُ بكثافةٍ في حَيّزٍ محدّدٍ، كتجمّع الماءِ في مجتمَعِه، والنّاسِ والنّملِ في القاريةِ والقَرْيةِ[2].

الرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: 43]، وهو جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ ونَحْوِ ذلك. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[3]، فالرّكم جمعٌ بتراكُمٍ فوقيٍّ، والقَرءُ جمعٌ خاصٌّ كذلك، ولكنّه جمعٌ باحتواءٍ.

وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ جاء في سياقِ تقريعِ الكافرين بخُسرانِهم في الدّنيا والآخرةِ، وأنّه سيجمعُهم في النّار يومَ القيامة، ولكنّه جمعٌ بطريقةٍ مهينةٍ كالشّيءِ الذي يُلقَى بعضُه فوق بعض، فانتزع عنهم صفةَ التّكريم بإنسانيّتِهم ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] فجعلَهم أشياءَ لا قيمةَ لها. وهذا المعنَى يتحقّقُ بالرّكم، لا بالجمعِ، لذا آثرَ التّعبيرَ بالرّكم.

الحشر والجمْع:

"الحشْرُ: هو الجمعُ مع السّوْقِ، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ

(1) الرّاغب، المفردات: (جمع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قري).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).

الحشْرُ أخصُّ مـنَ الجمعِ؛ فهو جمعٌ مع سَوْقٍ

﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشعراء: 36]، أي: ابعثْ من يجمعُ السّحرةَ ويسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشْرِ؛ لأنّ الخلقَ يُجمعون فيه ويُساقون إلى الموقفِ"[1]. وفي هذه الآيةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ عبّرَ بالحشرِ دون الجمعِ؛ لأنّه في مقام التّهكّم، فالحشرُ أظهرُ للنّكايةِ بهم، ودخولُهم النّارَ إنّما يكونُ بصورةِ مُدانين يُساقون إلى سوء مصيرِهم بما اقترفت أيديهم، لذا اصطفاه النّظمُ الكريمُ هنا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»